3

العقل

فى ذات الوقت، تقريباً، الذى كان P يكتب فيه قصته عن خلق الكون، كان بضعة فلاسفة فى مستعمرة، ملطية Miletus الإغريقية المزدهرة على ساحل بحر إيجة بآسيا الصغرى قد بدأوا يفكرون فى الكون بأسلوب مختلف تماما. كان ما يحاولونه جديداً بدرجة أنهم لم يجدوا له مُسمّى، لكنهم أصبحوا يعرفون بأتباع «المذهب الطبيعى naturalists أو phsikoi» لأن تفكيرهم كان يرتكز، بالكامل، على العالم المادى. كان سكان مستعمرة ملطية تُجارا وكانت اهتماماتهم - الإبحار، مسح الأراضى، الفلك، الحسابات الرياضية والجغرافيا- براجماتية تخدم التجارة، لكن ثراءهم منحهم رفاهية البحث والتكهن. توصلوا إلى استنتاج مُجفل. رأوا أنه على الرغم مما يتسم به الكون من تغيرات وتقلبات واضحة، فقد كانوا مقتنعين بوجود نظام أساسى له يقوم عليه، وبأن الكون كانت تحكمه قوانين يمكن إدراكها بالعقل. اعتقدوا أن ثمة تفسيراً لكل شىء وأن التقصى العقلانى الصارم سيمكنهم من اكتشافها. كان هؤلاء «الطبيعيون» هم من أطلقوا الموروث العلمى الغربى.

ونظرا لأن القلة فقط هم من كان باستطاعتهم فهم أفكارهم، فلم يكن لهم أتباع كثيرون، ولم يتبق من كتاباتهم سوى أجزاء متناثرة. لكن من الواضح أن هؤلاء الطبيعيين قد دفعوا بفكرهم إلى أقصى الحدود الممكنة للمعرفة البشرية، وتفحصوا العالم الطبيعى بعمق أكثر مما كان ممكنا فى زمانهم. اعتقدوا أنه سيكون بإمكانهم الحصول على إجابة بتفحص «بداية arche» الكون. فإذا استطاعوا اكتشاف المادة الخام التى كانت موجودة قبل الكون كما نعرفه، سيصبح بإمكانهم فهم مادته، وسيتضح كل شىء بعد ذلك.

لم يكونوا معادين للدين؛ وفى الواقع فلم يكن ثمة شىء فى الديانات الإغريقية لا يتفق مع هذا النمط من التفحص. كشعب آرى، تقبل الإغريق فكرة وجود نظام كونى مهيمن تخضع له كل الكائنات. لم تكن ثمة معتقدات تقليدية

ثابتة عن الخلق، ولم يكن آلهة جبل أوليمب كليّ القوة، أو قوى كونية. كان اختلافها عن غالبية الآلهة الأخرى هى الصفات البشرية التى تجسدت فيها. فى ملحمتيه اللتين ألفهما فى القرن السادس ق م، كان هومر قد ثبَّت شخصيات تلك الآلهة التى ظلت تعرف بها منذ آنذاك، وكانت نزاعاتها اللامنتهية ترمز إلى العلاقات المتصارعة للقوى المقدسة التى استشعرها الإغريق حولهم. حينما تأمل الإغريق عائلة أوليمپ المعقدة، كان بإمكانهم أن يلمحوا وحدة تجمع تناقضاتها المتصارعة معا. كثيرا ما كان يحدث وتتدخل تلك الآلهة فى شئون الأفراد بأسلوب غير مسئول، لكن تماثلها مع الرجال والنساء أكد على ملاءمتها للجنس البشرى. كان الإغريق يستشعرون حضور أحد الآلهة فى أى إنجاز بشرى استثنائى. حينما كانت ضراوة المعركة تتملك من أحد المحاربين كان يعرف أن

آريس ares (أحد آلهة الحرب) كان حاضرا؛ وحينما كان يطغى على عالم أحدهم حب إيروسى غامر كان يسمى تلك العاطفة أفرديت (إلهة الجمال والحب والجنس). كان هفاستوس Haphaestus يتجلى فى أعمال الفنانين، وأثينا فى كل الإنجازات الثقافية جميعها.

لكن من المحتمل أن سكان جزيرة ملطية، الذين كانوا قد التقوا بالثقافة المشرقية أثناء رحلاتهم التجارية، قد نظروا إلى الأساطير الإغريقية التقليدية بتباعد أكثر من سكان البر الرئيسى. أرادوا أن يوضحوا أن العواصف الرعدية والبرق لم تكن نتيجة نزوات كبير الآلهة زيوس الاعتباطية بل كانت تعبيرا عن قوانين فيزيقية جوهرية. بدأ أتباع المذهب الطبيعى يفكرون بأسلوب مختلف عن الآخرين. كان التنظيم السياسى المسمى «دولة المدينة polis» قد شجع موهبتهم للوصول إلى إجابات عن الأشياء بأسلوب منطقى مستقل. كان ذلك النظام يقتضى من كل مواطن المشاركة فى قرارات المجلس التمثيلى (النيابى). ولأن دولة المدينة كانت لها قوانين موحدة غير شخصية كان الإغريق يتعلمون تقصى المبادئ المجردة العامة بدلا من محاولة الوصول إلى حلول مباشرة قصيرة المدى. ومن المحتمل أيضا أن هذه الديمقراطية التى مارسوها قد ألهمت الطبيعيين بتطوير علم للكونيات أكثر ميلا للمساواة، بحيث رأوا أن عناصر الكون الفيزيقية تتطور وفقاً لمبادئ طبيعية متأصلة بها، مستقلة عن صانع واحد لها. لكن، علينا ألا نبالغ فى قدْر توجهاتهم نحو المساواة. فقد كان أرستوقراطيو الإغريق يتمتعون بامتيازات مفرطة. وكان المسعى الغربى وراء الحقيقة العلمية الموضوعية متجذرا فى أسلوب حياة كان يعتمد على مؤسسة الرِّق وإخضاع النساء. فمنذ البداية كان للعلم، مثله مثل الدين، ظلاله ونقاطه الملتبسة.

وفى ذات الوقت الذى سعى فيه التوجه الطبيعى الجديد إلى تحرير نفسه من النظرة القديمة إلى العالم فقد ظل أيضا متأثرا بالأفكار التقليدية. مثلا، يُحتمل أن تيلس Thales (حوالى ٥٨٠ ق م)، وهو من أوائل أتباع هذا المذهب، كان متأثرا بأسطورة «البحر» البدئى حينما رأى أن الماء هو المُكوّن الأصلى للكون. تقول الجملة الوحيدة التى وصلتنا من عمله «كل شىء من الماء والعالم ملىء بالآلهة». لكن، وبالتقابل مع الشعراء وصناع الأساطير، شعر تيلس أن عليه أن يبحث عن سبب كون الماء هو المادة البدئية: لا غنى للحياة عن الماء؟ باستطاعة الماء تحوير شكله إذ يصبح جليدا أو بخاراً، ومن ثم، فله القدرة على التطور إلى شىء مختلف. لكن لم يؤدِ توجه تيلس العلمى الطبيعى به إلى أن يتخلى عن الدين؛ فكان يرى العالم «مليئا بالآلهة». وبنفس الأسلوب، اعتقد أناكزيمينيس (٥٦٠ – ٤٩٦ ق م) أن مادة الكون الخام هى الهواء الذى تفوق أهميته للحياة أهمية الماء، كما أنه يحوّر نفسه من أثير خالص إلى مادة وذلك بتخثره باطراد ليصبح رياحا وسحبا وماء وترابا وصخرا.

انتحى أناكزيماندر (٦١٠– ٥٥٦) منحى آخر إذ اعتقد أن على الطبيعيين تجاوز المعطيات الحسية والبحث عن مادة خام تختلف كلية عن أى من الكائنات التى نعرفها. فلابد وأن الكون قد استُولد من كيان أكبر احتوى كل الكائنات اللاحقة فى شكل جنينى. أسمى هذا «اللامحدود، apei-ron,indefinite» لأنه ليس له خاصيات تُنسب إليه ومن ثم لا يمكن تعريفه. كان لا محدودا، مقدّسا (لكن ليس مجرد إله) ومصدر الحياة جميعها. ومن خلال عملية لم يستطع أناكزيماندر شرحها بشكل مُرضٍ، «انفصلت» الكائنات المفردة عن اللامحدود. انفصلت بذرة لتصبح كتلة باردة رطبة أصبحت

الأرض. ثم، ومثل شجرة تطرح عنها لحاءها، طرح اللامتناهى عن ذاته حلقات من النيران، يحيط بكل منها ضباب كثيف، ثم أحاطت بالأرض. وبدون إثبات إمبريقى، ظل هذا لا يتعدى الفانتازيا، لكن أناكزيماندر أدرك أن بإمكان العالِم إلقاء الضوء على المجهول، فقط إذا تجاهل أساليب التفكير المتعارف عليها.

حينما هزم الفرس جزيرة ملطية فى نهاية القرن السادس قبل الميلاد، انتقلت العاصمة العلمية إلى إليا، وهى مستعمرة إغريقية بجنوب إيطاليا. هناك، طور برمنيدس توجها جذريا متشككا. تساءل، كيف لنا أن نعرف أن للأسلوب الذى نحلل به الكون أية علاقة بالحقيقة ذاتها؟ أكانت القوانين والظواهر التى نعتقد أننا نلاحظها حقيقية وموضوعية، أم أنها تفسر فقط أوجه العالم القليلة التى باستطاعتنا رؤيتها؟ غدا برمنيدس مقتنعا بأن على العقل البشرى، لكى يصل إلى الحقيقة، الارتقاء فوق الحكمة التقليدية والآراء غير المثبتة. مثلا، رأى أن فكرة التغير مجرد عُرف. وأن الملطيين أخطأوا حينما تخيلوا أن العالم تطور تدريجيا. فالحقيقة تتكون من كينونة موحدة، مفردة، كاملة وأزلية وربما يظهر لنا أن المخلوقات تأتى إلى الحياة وتموت، لكن الحقيقة الصادقة لاتتأثر بالزمن. لا يجوز للشخص العقلانى التحدث عن أشياء ليست موجودة، فلا يجوز لنا أن نقول إن شيئاً قد وُلد، لأن هذا يضمر أنه كان ثمة وقت لم يوجد فيه؛ ولنفس السبب، لا يجوز لنا أن نقول إن شيئاً قد مات أو انتقل أو تغير. لكن، كيف للإنسان أن يعمل فى مثل هذا العالم؟ ماذا نفهم من التغيرات الفيزيقية التى نلاحظها فى أجسادنا؟ كيف لنا أن نقول أى شىء دونما ذكر للماضى أو المستقبل؟ كان أحد مريدى برمنيدس قائدا فى البحرية وسأله كيف له أن يوجه سفينة لا يفترض أنها تتحرك؟

اشتكى معاصرو برمنيدس من أنه لم يترك لهم شيئاً يتخذونه منطلقا للتفكير. لكن ليوسيپوس (حوالى ٤٠٠ ق م) وتلميذه ديموقريطوس (٤٦٦–٣٧٠) حاولا التخفيف من تلك العقلانية المتزمتة. وافقا على أن العالم يتكون من مادة موحدة لا تتغير لكنهما رأيا أنه ليس كينونة واحدة، كما كان برمنيدس قد اعتقد. وبدلا من ذلك فتلك المادة تأخذ شكل عدد لا يحصى من الجزيئات (atomos) شديدة الصغر غير المرئية «غير قابلة للانشطار» التى تتحرك دونما توقف فى الفراغ اللامحدود للفضاء. لم يعتقدا بوجود إله خالق بصير يتولى أمرها: رأيا أن كل ذرة تتحرك عشوائيا، مدفوعة آليا، وتُملى الصدفة المحضة توجهها. من حين لآخر، تتصادم الذرات، وتلتصق بعضها مكونة الظواهر الفيزيقية – رجال، نساء، نباتات، حيوانات، صخور وأشجار – التى نراها تحيط بنا. لكنهما رأيا أن تلك تكتلات وقتية فقط؛ ففى النهاية، تتحلل تلك الأشياء، وتواصل الذرات المكونة لها دورانها فى الفضاء إلى أن تشكل شيئاً آخر.

وعلى الرغم من أنه لم يكن بإمكان «الطبيعيين» إثبات نظرياتهم فإن بعض استبصاراتهم كانت لافتة. ففى محاولتهما لاكتشاف مبدأ أولى بسيط يفسر الكون، بدأ تيلس وآناكزيمينيس يفكران كالعلماء. وأدرك برمنيدس أن القمر يعكس ضوء الشمس، وسيتم إحياء نظرية ديموقريطس الذرية مرة أخرى فى القرن السابع عشر لتحدث أثرا كبيرا فى الثورة العلمية آنذاك. لكن، ساورت الشكوك بعضا من معاصريهم بشأن تلك الفلسفة الجديدة، لخشيتهم من أنهم بسعيهم إلى معرفة أسرار الكون، فإن «الطبيعيين» كان يحركهم الكبر البشرى. كانوا مثل برمثيوس الذى سرق نارا من الآلهة وأعطاها للرجال (الذين كان قد خلقهم) ليمكنهم من تطوير التكنولوجيا. لكن زيوس انتقم بأن

أمر إله الحِدادة الأعرج هفاستوس بصنع أول امرأة بندورا Pandora التى كانت جميلة وشريرة، وأصبحت مصدر أحزان العالم.

أخذ الرياضى فيثاغورث (٥٧٠ - ٥٠٠) العلم فى اتجاه مختلف. كان قد ولِد وتعلم بجزيرة ساموس على ساحل بحر إيجة حيث اشتُهِر بزهده وبصيرته الروحانية. درس فى بلاد الرافدين ومصر قبل أن يستقر فى جنوب إيطاليا. أسس جماعة دينية مكرسة لعبادة أپولو و«ربات الفنون (إلهات الجبل) The Muses»، حيث لم تكن دراسة الرياضيات والفلك والهندسة والموسيقى مجرد وسائل لتفحص العالم الفيزيقى، بل أيضا تدريبات روحانية. وباستثناء نظريته الشهيرة عن المثلث قائم الزاوية، فنحن لا نعرف الكثير عن فيثاغورث نفسه - كان لدى أتباع فيثاغورث فيما بعد نزوع لأن ينسبوا اكتشافاتهم للأستاذ - لكن، بالرغم من ذلك، فيحتمل أنه كان هو من نحت تعبير «فلسفة أى حب الحكمة». لم تكن الفلسفة مبحثا عقلانيا باردا، بل مسعى روحيًا متوهجا ينتهى بتغيير الساعى. وكان هذا هو نمط الفلسفة الذى سيتطور بأثينا أثناء القرن الرابع ق. م. لم تتكون العقلانية الإغريقية الكلاسيكية من تكهنات وفرضيات مجردة كهدف فى حد ذاته. الأحرى أنها كانت متجذرة فى مسعىً إلى التسامى وأيضاً فى أسلوب حياة عملى مكرّس.

تشكلت رؤية فيثاغورث، جزئيا، من خلال التغيرات الدينية الإغريقية أثناء القرن السادس ق. م. كان للإغريق رؤية للحياة مأساوية متفردة. كانت طقوسهم مصمّمة بحيث تعلم المشاركين التكيف مع أحزان الحياة من خلال جعلهم يواجهون ببسالة ومباشرة ما لا يمكن النطق به. مثلا، كانوا فى احتفال Thesmophoria يعيدون تمثيل قصة ديمتر إلهة الغلال التى وفرت الأساس الاقتصادى للحضارة. كانت قد ولدت لزيوس ابنة جميلة اسمها

برسفونى، ورغم علمه أن ديمتر لن توافق أبدا، فقد خطب زيوس برسفونى لشقيقه هاديس إله العالم السفلى الذى قام باختطافها وهبط بها تحت الأرض. غادرت ديمتر جبل أوليمپ، و قد تملكها الغضب، وراحت تبحث عن ابنتها وأوقفت كل الميزات التى كانت تمنحها للبشرية. بدأت المجاعات بدون الغلال، تتهدد البشر، من ثم، تدخلت آلهة الأوليمپ، ورتبت عودة برسفونى بشرط أن تقضى أربعة أشهر من كل عام مع زوجها. حينما كان يجتمع شمل برسفونى مع والدتها كانت النباتات تنبت وتزدهر، أما حينما كانت تعود إلى هاديس فى الشتاء كان القحط يعم لغيابها. أجبرت تلك الطقوس الإغريق على تخيل ماذا كان من المحتمل حدوثه لو أن ديمتر منعت عنهم أفضالها بشكل دائم. وهكذا كانت الزوجات يتركن أزواجهن، ومثل الإلهة، كن يختفين من دولة المدينة. ومعاً كن يصمن، ويفترشن الأرض كما اعتاد الناس أن يفعلوا فى العصور البدائية، وكن يُكلن اللعنات على جنس الذكور بأسلوب طقوسى. كان ذلك الاحتفال يجبر الإغريق على التمعن فيما كان من المحتمل حدوثه فيما لو دُمِرت الحضارة، التى كانت تقوم على مؤسسة الزواج، وأن يقدروا التضاد الحقيقى الموجود بين النوعين وأيضاً، إدراك الكارثة التى ستنتجم لو أن المحاصيل توقفت عن النمو. وفى نهاية الاحتفالات، كانت النساء يعدن إلى المنزل وتعود الحياة إلى طبيعتها، بعد أن يكون الجميع قد عرفوا أن البديل كان إمكانية مخيفة تتربص بهم.

لكن، فيما تطور مفهوم الفرد فى دولة المدينة، أراد الإغريق روحانية شخصية إلى جانب الطقوس العامة وطوروا عبادة الأسرار أو الطقوس السرية ويحتاج لفظ «سر mystery» إلى توضيح. لم تكن طقوس الأسرار تخليًا مشوشا عن العقلانية أو انغماسا ذاتياً مُغرِقاً فى الطقوس الفتشية

البدائية. بل إن تلك العبادات، فى واقع الأمر، ستُحدث أثرا عميقا فى العقلانية الفلسفية الجديدة. كان طقس الأسرار يعنى «التكريس»، (طقس دخول)؛ لم يكن شيئاً يعتقده المبتدئ (أو لا يعتقده) لكنه كان شيئاً يفعله. كانت طقوس الأسرار التى تطورت فى القرن السادس ق م، دراما نفسية محكمة البنية يخوض فيها «المبتدئون» أو «المكرسون» تجربة ساحقة يخبرون فيها المقدس، تجربة كانت تؤدى فى أحيان كثيرة، إلى تغير كلى فى مدركاتهم عن الحياة والموت.

كانت أكثر طقوس الأسرار شهرة تقام سنويا فى إليوسيس Eluesis على بعد حوالى عشرين ميلا غربى أثينا. حينما غادرت ديمتر، غاضبة، جبل أوليمب بعد اختطاف برسفونى جالت جميع أنحاء الأرض متخفية كامرأة عجوز وهى تبحث عن ابنتها. ولما وصلت إلى اليوسيس وظفتها «متانيرا» زوجة الملك كليوس مربية لولدهما ديموفون. ولترد لها جميلها، قررت ديمتر أن تجعل الولد مقدسا خالدا وذلك بحرق الجانب البشرى فيه. لكن الملكة متانيرا اكتشفت ذلك، وتملكها الذعر ومنعتها قبل أن يصيب ابنها الخلود. وبعد أن كشفت ديمتر عن نفسها فى كل بهائها غادرت القصر غاضبة، لكنها عادت فيما بعد لتُعلم الإليوسيسيين كيف يزرعون الغلال وتلقنهم أسرارها المقدسة. وحينما عادت ديمتر إلى جبل أوليمب تركت الأسرار المقدسة مع الملك كليوس (الطقوس المشهورة حول عودة برسڤونى). ورغم أنه من المحتمل أنه كان ثمة احتفال فى إليوسيس منذ العصر الحجرى الحديث، إلا أنه، تم بناء قاعة طقوس مهولة فى القرن السادس قبل الميلاد، وظلت طقوس الأسرار الإليوسيسية لمدة تربو على الألف عام، جزءا لا يتجزأ من الحياة الدينية فى أثينا.

فى خريف كل عام، كانت مجموعة جديدة تتقدم لممارسة الطقوس المقدسة. ظل ما كان يحدث داخل قاعة الشعائر سرا، لأن تلاوة الطقوس على آذان الغرباء كان لابد وأن يجعلها تبدو تافهة، وأدى ذلك إلى أنه لم يصلنا سوى لمحات خاطفة لما كان يحدث. بيد أنه يبدو أن الأتباع الجدد كانوا يعيدون تمثيل أحداث إقامة ديمتر فى إليوسيس. ومثل أية طقوس تكريس قديمة أخرى، كانت الشعائر مخيفة. كان الأتباع الجدد يدركون أن أسطورة إليوسيس رمزية: لو أننا سألناهم عن إثباتات تاريخية كافية لزيارة ديمتر لوجدوا السؤال غير ذى معنى. كانت الأسطورة كلاما عن أحد الآلهة Theo-logia، وكأى خطاب دينى أخر، كان يُضفَى عليها المعنى فى سياق الممارسات النظامية التى كانت تبعث به إلى الحياة. وحقيقة عدم إمكانية فهم الأسطورة بأسلوب حَرْفى جعل أثرها أكثر فاعلية. يقول ديمتريوس الكاتب الهلنيستى موضحا هذه النقطة، «كان ما يُتكهن به (ولا يُعبّر عنه بوضوح) أكثر إثارة للخوف. من السهل احتقار ما هو جلىّ واضح، مثل الرجال العرايا. من ثم، يُعبَّر عن الأسرار من خلال طقوس رمزية كى تثير الرعب والخوف، فيما تُؤدَّى فى ظلمة الليل». كانت الطقوس تتيح للمكرسين المشاركة فى معاناة ديمتر. كانت شعائرها توضح أنه ليس ثمة حياة دونما موت. لابد من دفن الجذور عميقا فى الأرض كى تستطيع إثمار الطعام الذى تجبر الحياة، من ثم، كانت ديمتر، إلهة الغلال، سيدة العالم التحتى أيضاً. كانت «الأسرار» تجبر الممارسين على مواجهة حقيقة أنهم كائنات فانية، وأيضا على أن يخبروا رعب الموت ويتعلموا تقبّله بصفته جزءا لا يتجزأ من الحياة.

لكن المسيرة كانت صعبة ومرهقة. كانت تبدأ فى أثينا حيث كان ممارسو طقوس الأسرار mystai يصومون يومين كاملين، ويقدمون خنزيرا صغيرا

أضحية لپرسفونى، ثم يبدأون بحشد ضخم مسيرتهم الطويلة إلى إليوسيس في حرارة الشمس حيث كانوا يشعرون بالضعف والترقب. كان أحد الأشخاص من الذين خاضوا الطقوس فى السنة السابقة يسير معهم، ويكيل لهم الإهانات والتهديدات فيما هم فى حالة من الانتشاء ينادون على ديونيسيوس (إله الخمر والخصب والشعر والتحول) ويتملكهم جنون الاستثارة. كانوا يصلون إليوسيس فى المساء، مشوشين منتشين ومرهقين، ثم يُساقون مجيئة وأوبة فى الشوارع على ضوء مشاعل وامضة، وفى النهاية، يصلون إلى بهو شعائر التكريس شديد الظلمة بعد أن يكونوا قد وصلوا إلى ذروة التشوش وانعدام الحس بالهوية والاتجاهات. لا نعرف الآن، على وجه التحديد، ما كان يتم بعد ذلك: أضحيات حيوانية، حادث صادم– أو طفل يدفع به فى النار على غرار ما فعلته ديمتر مع ديموفون لكنه أنقذ فى اللحظة الأخيرة، ثم «الكشف». كان ثمة شىء يرفع ربما حزمة من سنابل القمح – من سلة مغطاة. لكن شعائر الأسرار كانت تُختم بنهاية مبهجة، مشهد مسرحى يُصور عودة برسفونى من عالم الموت وجمع شملها مع أمها.

لم يكن ثمة تعاليم سرية تُنقل للمبتدئين كى «يعتقدوا» فيها. كان «الكشف» حاسما فقط بصفته ذروة للخبرة الشعائرية الزخمة. وفى موجز رائع لتلك العملية الدينية، سيوضح أرسطو، فيما بعد، أن «المبتدئين» لم يذهبوا إلى إليوسيس كى يتعلموا (mathein) أى شىء، بل ليخوضوا تجربة (pathein) وتغيرا جذريا فى التفكير (diatethenai). ويبدو أن الشعائر كانت تترك عميق الأثر على ممارسيها. وكما ذكر ديو البروسى (١١٧– ٥٠ ق م) الخطيب الإغريقى حيث قال إنه لم يكن من المحتمل لأى من الممارسين سوى أن يصاب بالذهول من هول تلك الطقوس وحجمها، حيث كانوا

«يبصرون مشاهد روحانية جمة ويسمعون أصواتاً من نفس النوع فيما تسود الظلمة ويظهر النور بأسلوب فجائي، هذا عدا أشياء أخرى لا تحصى»، كان من المستحيل لأى منهم «ألا يخبر شيئا فى أعماق روحه، وألا ينتهى به الأمر بالحدس أن ثمة بصيرة أكثر حكمة أو خطة فى كل ما يحدث حوله». أما المؤرخ بلوتارخ (١٢٠- ٤٦ ق م) فاعتقد أن طقوس التكريس تلك كانت تمثل ذائقة مسبقة للموت. كانت تبدأ بتحلل للعمليات العقلية للممارسين، تشوش وفقدان الحس بالذات، ممرات مخيفة لا تؤدى إلى أى مكان، وقبيل النهاية «رعب، ارتعاد، وذهول». ثم أخيرا «نور مدهش.. مناطق صافية مضيئة ومروج تستقبلك، ومعها أصوات ورقصات، وأصوات مقدسة وقورة، ومشاهد قدسية».

كانت تلك الدراما المصممة بعناية تُدخل الممارسين إلى بُعدٍ للحياة جديد تماما، بحيث يلامسون مستوى أعمق غير واعٍ من النفس، ويشعر الكثيرون فيما بعد أنهم مختلفون تماما. قال أحدهم «خرجت من قاعة الأسرار وأنا أشعر أننى غريب عن نفسي». كانوا يجدون أنهم لم يعودوا يخشون الموت، فقد وصلوا لحالة «الانتشاء الروحى ekstasis». أو «الخطو خارج» ذواتهم المعتادة، ولفترة وجيزة، كانوا يشعرون بشىء شبيه ببهاء الآلهة. لكن لم يتمتع الجميع بنفس المهارة فى تلك الألعاب الطقوسية. ذكر الفيلسوف الأثينى بروكلوس (٤١٢- ٨٥ ق م) أن «الرعب كان يتملك» من البعض أثناء الجزء الأكثر ظلمة من الطقوس: ويظلون فرائس لخوفهم" لم تكن لديهم المهارة الكافية التى كانت تتطلبها لعبة التظاهر الطقوسية تلك لكن الآخرين كانوا يصلون لحالة من الانجذاب الروحى sympathia تجعلهم يشعرون بالتوحد مع الطقوس بحيث يفقدون ذواتهم فيها «بأسلوب غير مفهوم لنا، ومقدس».

كان انتشاؤهم الروحى هذا «نسيانا للذات Kenosis» وتفريغا لها مكّنهم من «إدماج أنفسهم في الرموز المقدسة، وترك هواياتهم الخاصة، والتوحد مع الآلهة، بحيث يخبرون مسًا إلهيا».

بيد ان بعض الإغريق بدأوا ينقدون الأساطير القديمة. تساءل إكزنوفانيس الشاعر الإيجى (٥٦٠- ٤٨٠ ق م) عن كيف يتأتى لأى أحد أن يتخيل أن الآلهة «يولدون، ويرتدون الملابس، ويتمثلون البشر فى الحديث والهيئة»، أو أنهم يزنون، ويسرقون ويخدعون؟ لكى يكون مقدسا حقا، فلابد للإله أن يتسامى عن تلك الصفات البشرية ولا يخضع للزمن أو التغير. أصر الفيلسوف الطبيعى أناكساجوراس (٥٠٨- ٤٣٥ ق م) على أن القمر والنجوم هى مجرد صخور ضخمة، وأن من يتحكم فى الكون ليس الآلهة، بل «عقل nous» مكون من مادة مقدسة. أما بروتاجوراس، فقد أثار ضجة حينما وصل إلى أثينا عام ٤٣٠ ق م، وألقى محاضرة بمنزل يوريبيديس كاتب المسرحيات (٤٨٠- ٤٠٦ ق م). رأى أنه ليس بوسع أى إله فرض مشيئته على البشر، أما آلهة أوليمپ، فمن باستطاعته القول ما إن كانوا موجودين أم لا؟ «ثمة عوائق كثيرة فى سبيل مثل تلك المعرفة، بما فى هذا غموض وقِصر الحياة البشرية». وببساطة، فليس ثمة أدلة لقول قاطع عن وجود المقدس، بشكل أو بآخر.

كانت أثينا مازالت مدينة شديدة التدين، ومن ثم تم طرد بروتاجوراس وأنا كساجوراس خارجها. لكن الناس كانوا يسعون إلى شكل أعمق للإيمان بالإلهة. رأى كاتب التراجيديا إيسكلوس (٥٢٥ – ٤٥٦ ق م) أن الآلام الملازمة للحياة البشرية هى الطريق لاكتساب الحكمة. لقد علّم زيوس – «أيا من كان زيوس» – البشر «أن يفكروا» ويتمعنوا فى ألم التجربة البشرية. لذا كان من المقدر لنا:

أن نعاني، نعاني حتى نصل إلى الحقيقة
لا نستطيع النوم. يحضرنا في أعماقنا ثانية،
ألم الألم، الذى نتذكره قطرة قطرة.
نقاوم، لكن النضج يأتى أيضا.
من الآلهة المتربعين على مقعد التجديف.
يأتينا حب عنيف.

مسرحية أجامنون: ١٧٧- ١٨٤.

أما يوريبيديس فقد أراد إلها أكثر تساميا: تدعو الملكة هكيوبا فى تراچيديا نساء طروادة قائلة «أنت يا من تمنح الأرض العون، وتعيننى أنا به، أيًا من كنت، تلك القوة التى لا نملك أن نعرفها، زيوس، فلتكن قانون الطبيعة الصارم، أو الذكاء فى البشر، لَكَ أُصلّى، لأنك توّجه كل شئون البشر فى طريق العدالة، وتتحرك بخطى لا تسمع» (نساء طروادة: ٨٨٤- ٨٨٨). ويبدو أن يوريبيديس كان قد توصل إلى أن «عقل nous» كل منا إله. ويبدو أن فلاسفة أثينا كانوا على وشك التوصل إلى نفس الاستنتاج.

أثناء عشرينيات القرن الرابع قبل الميلاد، وخلال أشد مراحل الحروب البلوبونيسية قتامة، بدأ فيلسوف جديد يجذب دائرة من المريدين المكرّسين فى أثينا. كان سقراط (٤٦٩- ٣٩٩ ق م) ابناً لقاطع حجارة وقابلة. كان ذا هيئة غير جذابة، شفتاه بارزتان، أنفه مفلطحة فطساء، وله كرش ضخم، وبالرغم من ذلك، كان له أثر آسر على مجموعة من الشبان من أكثر أسر المدينة نبالة. لكنه كان بإمكانه التحدث إلى أى أحد بإطلاقه، غنيا كان أم فقيرا. وفى واقع الأمر، فقد كان بحاجة إلى المحادثة كى ينجز مهمته. فوق كل شىء آخر، كان

سقراط عازما على تقويض الأفكار المصدّقة بدهيا وتفحص المعنى الحق للفضيلة. لكنه كان يطرح الأسئلة الصائبة فى الزمن الخطأ. كان الناس. فى أثناء تلك الأزمة، بحاجة إلى اليقين، لا النقد اللاذع، وفى عام ٣٩٩، حكُم على سقراط بالموت بتهمة «إفساد الصبية»، ورفضه الاعتراف بآلهة المدينة الدولة، والدعوة إلى آلهة جديدة. أنكر التهم وأصر أنه لم يكن ملحدا مثل أناكساجوراس. وتساءل كيف يمكن لتعليم ما يتعلق بالخير أن يكون مفسدا. من المحتمل أنه كان بإمكانه تلافى تنفيذ الحكم، بل ربما أنهم توقعوا منه أن يحاول ذلك لكن، وعلى الرغم من أن الحكم كان ظالما فقد فضّل إطاعة قوانين أثينا الحبيبة حتى النهاية: كان له أن يموت شاهدا (شهيدا) على الباطل الذى كان فى طريقه للهيمنة.

لم يَصُغ سقراط أيا من تعاليمه كتابةً، من ثم، علينا الاعتماد على الحوارات التى ألفها تلميذه أفلاطون (٤٢٧- ٣٤٧ ق. م) التى تزعم أنها سجل لتلك الأحاديث. لم يكن سقراط يكُنّ تقديرا كبيرا للأحاديث المكتوبة، فقد اعتقد أن من يقرءون كثيرا يظنون أنهم يعرفون كل شىء، لكنهم لا يعرفون شيئا بإطلاقه لأنهم لم ينقشوا ما قرءوه بأسلوب لا يمحى فى عقولهم. اعتقد أن الألفاظ المكتوبة تماثل الأشكال المرسومة. تبدو حية، لكنك إذا وجّهت إليها أسئلة ظلت صامتة. فبدون التبادل الحيوى للأحاديث الذى يتسبب فيه اللقاء البشرى، تظل المعرفة التى سينقلها النص المكتوب جامدة خاملة: «تمضى تحمل الدلالات ذاتها للأبد». لم يكن سقراط يوافق على الآراء الثابتة الدوغماتية. اعتقد أنه حينما تُكْتب الفلسفة، يصبح من السهل إساءة فهمها، لأن الكاتب لا يستطيع تشكيل خطابه ليتوافق مع احتياجات مجموعة معينة. فى حين أن بإمكان الحوار الحى تغيير حال المشارك فيه وجعله يخبِر «أقصى حالات السعادة الممكنة للبشر».

من الصعب اليوم تقدير سطوة الكلمة الشفاهية فى العالم قبل الحديث. لم يسع سقراط فى حواراته فقط إلى تثقيف عقول من يتحدث إليهم بل أيضا إلى تشكيلهم بحيث يخبرون تغيرا نفسيا باطنيا عميقا. وحتى يوم وفاته، كان سقراط يُصر على أنه ليس لديه أى اهتمام بتعليم أى شىء لأى أحد، لأنه لم يكن لديه ما يعلمهم إياه بإطلاقه. تذكر، قرب نهاية حياته مناسبة هاجمه فيها أحد قادة السياسيين فى أثينا، وقال سقراط لنفسه آنذاك «إننى أكثر حكمة من هذا الرجل، من المحتمل أن كلانا لا يعرف أى شىء ذا قيمة، لكنه يعتقد أنه يعرف شيئا، فى حين أنه لا يعرف، فيما أنا لا أعرف شيئا ولا أعتقد أننى أعرف؛ من ثم، يحتمل لى أن أكون أكثر حكمة منه بهذا القدر الضئيل، أى أننى لا أعتقد أننى أعرف ما لا أعرفه». وبدلا من أن يكون متعسفا بشأن أفكاره، كان سقراط «لا أدريا» بعمق وثبات وسعى إلى أن يوضح لمن كانوا يأتون إليه القدر القليل الذى كانوا يعرفونه فى واقع الأمر.

كان هذا أحد الأسباب التى من أجلها أصبح نافد الصبر مع أتباع المذهب الطبيعى. فى أحد الحوارات التى قال أفلاطون إنه حدث بالسجن حيث كان سقراط يقضى آخر أيامه، نجد سقراط يذكر أنه كان مولعا بالعلم الطبيعى فى شبابه، وأعتقد أن من الروعة أن يعرف أسباب كل شىء «كيف يأتى إلى الوجود، كيف يفنى، ولِمَ يوجد». لكنه اكتشف أن الطبيعيين لم يكونوا مهتمين بتلك الأشياء، بل كان تركيزهم فقط على التفسير المادى لهذه الظواهر. أيضا كان قد شعر بالبهجة حينما سمع عن نظريات أناكساجوراس عن العقل الكونى، لكنه أُحبِط حينما اكتشف أن «الرجل لم ينسب أية فائدة إلى هذا العقل أو أناط به أية مسئولية لإدارة الأشياء، لكنه ذكر، كأسبابه، الهواء والأثير والماء وأشياء أخرى غريبة». أعتقد أن هذا التركيز على ما هو مادى

محض كان يستثنى أشياء كثيرة جداً، كان يناظر القول أن سبب جلوسه فى السجن هو «أن جسدى يتكون من عظام وأوتار» وأن «استرخاء الأوتار يمكننى من ثَنيِ أطرافى، وهذا هو السبب فى أننى أجلس وأطرافى مثنية» وتساءل لِمَ لا تتواجد عظامه وأوتاره وجسده الآن بأمان فى مدينة ميجارا أو بيوتيا، «لو أوْصلَها هناك اعتقادى بأن ذلك كان السبيل الأفضل، بيد أننى اعتقدت أن الأصوب والأكثر شرفا وكرامة أن أتحمل العقوبة التى أمرت بها المدينة بدلا من الهرب أو الفرار؟». اعتقد سقراط أنه لابد للعلم أن يستمر، لكنه شعر أن الطبيعيين لم يكونوا يطرحون الأسئلة ذات الأهمية الحقيقية. وإذا كان اهتمامنا الحقيقى هو الأخلاق أو المعنى، فسيكون علينا البحث فى مكان آخر.

ومثل ممارسى الطقوس السرية بإليوسيس، فقد كان من يذهبون للتحاور مع سقراط لا يسعون لتعلم أى شىء، بل لخوض تجربة يخبرون معها تغيرا جوهريا فى التفكير. كان الحوار السقراطى تدريبا روحانيا. أوضح پيير هادو المؤرخ والفيلسوف الفرنسى، أن العقلانية الأثينية، وبخلاف الفلسفة الحديثة التى تميل لأن تكون نظرية محضة، كانت تستخلص استبصاراتها من التدريبات العملية ومن أسلوب حياة خاضع للنظام. فقد كانت الكتابات المفاهيمية لأفلاطون أو أرسطو إما وسائل مساعدة على التعليم أو أنها كانت مجرد دليل تمهيدى للساعين إلى أسلوب حياة جديد. وبالتقابل مع أتباع التوجه الطبيعى، كان سقراط مهتما بالخير فى المقام الأول، ومثل كنفوشيوس رفض تعريفه. فبدلا من تحليل مفهوم الفضيلة، أراد أن يحيا حياة فاضلة. مثلا، حينما طُلب منه تعريف للعدالة، أجاب سقراط «بدلا من التحدث عنها، أجعلها مفهومة من خلال أفعالى». أى أنه فقط حينما يتخير الشخص أن تكون تصرفاته عادلة، يصبح بإمكانه تشكيل أية فكرة عن الوجود العادل.

كان الفيلسوف جوهريا بالنسبة لسقراط ومن أتوا بعده «محبا للحكمة». كان يتوق إليها تحديدا لأنه كان يدرك أنه لا يمتلكها. وكما أوضح پول فرايدلاندر، فقد «كان ثمة توتر بين الجهل - أى الاستحالة جوهريا للتعبير بالكلمات عن ماهية العدالة - وبين الخبرة المباشرة بما لا سبيل إلى معرفته، أى وجود الرجل العادل الذى ترتقى به العدالة إلى مستوى المقدس». وبقدر ما يمكن لنا معرفته من حوارات أفلاطون، يبدو أن سقراط كان يحاول الوصول إلى فكرة متسامية للفضيلة المطلقة التى لا يمكن أبدا تصورها أو التعبير عنها كما يجب، لكن بالإمكان حدسها من خلال الممارسات الانضباطية الروحانية مثل التأمل. كانت قدرة سقراط على التركيز هائلة. علق أحد أصدقائه قائلا: إنه كان يغيب، بين الآونة والأخرى ويقف دونما حراك أيًا ما كان يحدث حوله. تذكر ألسيبياديس السياسى الأثينى الشهير أن سقراط بدأ، أثناء إحدى الحملات العسكرية يفكر فى مشكلة لم يستطع حلها. ولدهشة زملائه الجنود، «وقف متسمرا فى موقعه» طوال النهار والليل ولم يغادره حتى الفجر «حينما بزغت الشمس وأدى صلاته لليوم الجديد». كانت حوارات أفلاطون نموذجا لنمط التأمل الذى كان سقراط وأتباعه يمارسونه، لم يكن يشبه اليوجا، بل اتخذ شكل حوار مع النفس - إما فى عزلة، أو مع آخرين - حوار يدفع بالفكر إلى حدوده القصوى.

لكن سقراط اعتقد أن نمط الحوار الباطنى هذا يكون ممكنا فقط إذا كانت الذات التى تحاورها ذاتا حقة. كانت مهمة سقراط إيقاظ معرفة الذات الحقة بداخل من كانوا يتحدثون إليه. كان هو من اخترع ما أصبح يعرف بالديالكتيك أو فن الجدل، ذلك المبحث المنطقى الصارم الذى يُعنى بكشف المعتقدات الزائفة واستخلاص الحقيقة. من ثم، يمكن للحديث مع سقراط أن

يثير القلق. أوضح نيسياس صديق سقراط أنه حتى فى الحالة التى كان فيها شخص يبدأ فى الحديث إليه عن أمر مختلف تماما، كان يُجبر فى النهاية على «الخضوع للإجابة عن أسئلة حول أسلوبه الحالى فى الحياة، وأيضا الحياة التى عاشها حتى تلك اللحظة. و... لم يكن سقراط يدعه يذهب حتى يكون قد أخضع جميع التفاصيل لاختبار جيد حق». لم يكن يناقش سوى المواضيع الذى يشعر شركاؤه فى الحديث بالارتياح لمناقشتها. مثلا، اعتقد لاخنس La-ches، بصفته قائدا بالجيش، أنه يفهم طبيعة الشجاعة وكان مقتنعا بأنها صفة نبيلة. وعلى الرغم من ذلك، فقد بيّن سقراط، بعد أن راكم الأمثلة الواحد تلو الآخر، أن بإمكان الفعل الشجاع أن يبدو غبيا وأحمق. وحينما أوضح نيسياس أنه، وعلى النقيض، فإن الشجاعة تتطلب الذكاء اللازم لتقدير الرعب، أجاب سقراط أن جميع الأشياء الرهيبة التى نخشاها تنتمى فى واقع الأمر إلى المستقبل وهى بذلك مجهولة لنا، من ثم، ليس بإمكاننا فصل المعرفة بالشر المستقبلى عن تجاربنا الراهنة والماضية. كيف يتأتى لنا فصل الشجاعة عن الفضائل الأخرى فى حين أن الشخص الباسل الحق يجب أيضا أن يكون معتدلا، عادلا، حكيما وخيّرا؟ فإن الفضيلة المفردة مثل الشجاعة يجب أن تكون متطابقة مع جميع الفضائل الأخرى وملازمة لها. وبنهاية الحديث، كان هؤلاء الثلاثة الذين كانوا قد خاضوا الحرب البيلوبونيسية، والذين تحملوا رضوض المعركة وصدماتها، وكان من المفترض لهم أن يكونوا خبراء فى الموضوع، قد وجدوا أنهم لم يعرفوا أولى الأفكار عن ماهية الشجاعة. شعروا بالحيرة، وبأنهم على قدر من الغباء، وكأنما هم أطفال جهلة عليهم العودة إلى المدرسة.

كان الجدل السقراطى نسخة عقلانية من سباق البراهموديا Brahmod-

ya الطقوسى الهندى الذى كان يؤدى بالمتنافسين إلى تقدير مباشر للآخرية المتسامية التى تكمن بعيدا عن متناول الكلمات وقدرتها على التعبير. فمهما كان قدر الحوار المنطقى الثاقب الذى يجريه مع شركائه، كان دائما ثمة شيء يراوغهم، من ثم، كان الحوار السقراطى يقود الناس دائما إلى إدراك صادم بعمق جهلهم. وبدلا من الوصول إلى يقين عقلى كان الحوار العقلانى المنطقى العلمى الصارم يكشف عن وجود متسام بدا جزءا من التجربة البشرية لا مهرب منه. لكن سقراط لم يعتبر هذه الحالة من عدم المعرفة حجر عثرة. على الناس أن يسائلوا تحيزاتهم الأكثر جوهرية وإلا عاشوا حياة سطحية ذرائعية. وكما أوضح للمحكمة التى حكمت عليه بالإعدام: «إن الخير الأعظم للفرد هو مناقشة الفضيلة كل يوم، وأيضا الأشياء الأخرى التى تسمعوننى أناقشها وأتفحص من خلالها نفسى والآخرين، لأن الحياة التى لا تخضع للتفحص غير جديرة بأن يعيشها المرء» كان سقراط دعوة حية إلى الواجب الأعظم لتفحص الذات الصارم. وصف نفسه بأنه مثل الذبابة ماصة الدماء، دائما ما يلدغ الناس ليصل بهم إلى حالة من الوعى، مجبرا إياهم على اليقظة تجاه أنفسهم، يسائلون كل رأى من آرائهم، ويرعون تقدمهم الروحانى. لم يكن المهم هو العثور على حل للمشكلة، بل الطريق الذى يقطعه الأشخاص بحثا عن ذلك الحل. لا تقتضى فلسفة الأمور إكراه خصمك على قبول وجهة نظرك، بل خوض معركة مع نفسك. فى نهاية حديثه المربك مع سقراط، خبر لاخس «تحولا metanoia» ويعنى اللفظ حرفيا، «الاستدارة بالاتجاه المعاكس». لم يكن هذا يعنى أنه قد قَبِل حقيقة عقائدية جديدة، بل على العكس، فقد اكتشف أنه، ومثل سقراط نفسه، لا يعرف شيئاً بإطلاقه. جعله سقراط يدرك أن النظام القيمى الذى كان يعيش وفقه كان دونما أساس؛

وكنتيجة لهذا، ومن أجل السير قدما بأسلوب حق، لابد أن تقوم نفسه الجديدة على أساس من الشك، لا اليقين. لم يُنجز ذلك النمط من الحكمة الذى أتاحه سقراط باكتساب معارف، بل بتعلم أن «يكون be» بأسلوب مختلف.

غالبا ما يكون النقاش العقلانى فى مجتمعنا الراهن عدوانيا، وذلك لأن المشاركين لا يخوضون المعركة مع أنفسهم، بل يبذلون قصارى جهدهم للبرهنة على عدم صحة وجهة نظر خصمهم. كان هذا هو نوع الجدل الذى كان قائما بالمجالس الأثينية، ولم يَرُق لسقراط. أبلغ سقراط مينو، الشاب الأرستوقراطى الطموح أنه لو أنه كان أحد «المجادلين المهرة المثيرين للخلافات» لعبّر عن رأيه وتحدى مينو أن يفنده. لكن ذلك ليس أسلوبا لائقا للحوار بين أشخاص «أصدقاء مثلى ومثلك» نريد النقاش مع بعضنا. ففى الحوار الحق لابد للمتحاورين «الإجابة بأسلوب أكثر لطفا، وأكثر ملاءمة للنقاش». من ثم، لم يحاول «الفائز» فى الحوار السقراطى إكراه خصم غير راغب على قبول وجهة نظره. كان الجدل جهدا مشتركا. يعبر أحد الأطراف عن نفسه بوضوح كهدية للطرف الآخر الذى، بدوره تؤثر آراؤه المعبر عنها بجمال فى الطرف الأول على مستوى عميق. فى الحوارات التى سجلها أفلاطون، نجد أن الحديث يتوقف، ويتحول مؤقتا إلى موضوع آخر، ثم يعود إلى الفكرة الأصلية بأسلوب يحول دون أن يصبح دوغماتيا تعليميا. كان من الأمور الجوهرية فى كل مرحلة من الجدل، أن يبقى سقراط ومحاوروه على وفاق منظم منفتح متعاطف.

ولأن الحوار السقراطى كان يُخبر على أنه طقس دخول تكريس (musterion) استخدم أفلاطون لغة ديانات الأسرار لوصف تأثيره على الناس. قال سقراط ذات مرة إنه – ومثل أمه – كان قابلة مهمته مساعدة

محاوره على استيلاء ذات جديدة. ولابد للحوار الناجح، مثل أى طقس تكريسى ناجح، أن يؤدى إلى حالة من الخطو خارج الذات ekstasir: فالمتحدثون، باستغراقهم في وجهة نظر بعضهم، يُنقلون خارج نواتهم.. كان على أى شخص يدخل فى حوار مع سقراط أن يكون على استعداد للتغير، كان عليه أن يكون على إيمان (pistis) بأن سقراط سيقوده خلال دوامة الشك (aporia) البدئية بأسلوب ممتع. وفى نهاية هذا الطقس الفكرى، وإذا كان قد استجاب بصدق وكرم، سيصبح ذلك «المبتدئ» فيلسوفا، شخصا أدرك أنه تعوزه الحكمة، يتوق إليها، لكنه قد عرف أيضا أنه لم يكن من كان يعتقد أنه هو. ومثل الذين يؤدون طقوس ديانات الأسرار، فقد أصبح «غريبا على ذاته». هذا السعى للحكمة الذى لاهوادة فيه يجعل الفيلسوف «لا يمكن تصنيفه atopos». ولهذا السبب، لم يكن سقراط مثل بقية الناس، لم يهتم بالمال أو بالترقى، بل إنه لم يخامره القلق على أمنه الشخصى.

فى مؤلفه السيمبوزيوم Symposium، جعل أفلاطون سقراط يصف مسعاه للحكمة كعلاقة حب تسيطر على كيان الساعى كلية إلى أن يصل إلى حالة ekstasis التى يخرج فيها من ذاته صاعدا من مرحلة إلى مرحلة إلى كينونة أسمى. إذا أسلم الفيلسوف ذاته إلى «إلى حب للحكمة سخى الجزاء» سيكتسب معرفة بهيجة بالجمال الذى يتخطى الكائنات المحدودة لأنه الكينونة ذاتها: «إنه كائن على الدوام»: لا يدخل إلى حيز الكينونة أو يموت، لا يتعاظم أو يضمحل». لم يكن مقصوراً على:

«فكرة واحدة، أو نمط واحد للمعرفة. لا يوجد فى أى مكان فى أى شىء آخر، مثل حيوان أو الأرض أو السماء، أو أى شىء آخر، لكنه ذاته بذاته مع ذاته، وهو دائما فى هيئة واحدة، وكل الأشياء الأخرى الجميلة تشارك فى هذا

بحيث إنه حينما تأتى تلك الأخريات إلى حالة الكينونة أو تخرج منها (وتموت)، لا يصبح هو أقل أو أعظم أو يخضع لأى تغير».

ذلك الجمال كان «مطلقا، خالصا، غير ممزوج، فريدا، خالداً» - مثل البرهمن ، النيرڤانا أو الرب. كانت الحكمة تُغيّر الفيلسوف بحيث يتمتع هو بقدر من القداسة: «يمتلك حب الآلهة أى شخص يُنجب الفضيلة الحقة ويغذيها ويرعاها، ولو أن بوسع أى إنسان أن يكون خالدا لكان الخلود من نصيب هذا الشخص».

وفيما أنهى سقراط هذا الشرح المؤثر، اندفع إلسيبياديس وسط المجموعة، وقد أطلق الشراب لسانه، ووصف التأثير الاستثنائى الذى مارسه سقراط عليه. قال إن سقراط قد يكون فى قبح الساتير Satyr (مخلوق غزير الشعر نصفه بشر ونصفه حيوان له قرون وآذان ماعز)، لكنه كان يماثل الصور الشعبية للساتير سايلنوس الذى يوجد داخله تمثال صغير للإله. كان أيضاً مثل الساتير مارسياس عازف الناى المبدع الذى كانت موسيقاه تنقل مستمعيه إلى حالة من الغشية يتوقون أثناءها للتوحد مع الآلهة. بيد أن سقراط لم يكن بحاجة إلى آلة موسيقية لأن كلماته وحدها كانت تحرك عمق أعماق الناس. لقد جعل ألسيبياديس يدرك كم كانت حكمته معيبة وكم كان يفتقد إلى معرفة ذاته: «دائماً ما يوقع بى، ويجعلنى أعترف أن حياتى السياسية كانت تبديدا للوقت، فى حين أن الشىء المهم هو الذى كان يلقى منى أكبر قدر من الإهمال: نقائصى الشخصية التى تصيح عاليا من أجل أكبر قدر من الاهتمام». قال إنه حاول صم أذنيه عن دعوات سقراط الجازمة للفضيلة، لكنه لم يستطع إبعاد نفسه عنه: «أقسم لكم أنه بمجرد أن يبدأ فى الحديث، أفقد السيطرة على نفسى: يبدأ قلبى يقفز فى صدرى وتنهمر الدموع

على وجهى» ملأه منطق سقراط بسعار وهوس يماثل طقوس أسرار ديونيسيوس، كان المستمع يشعر ببالغ التشوش (explexis) وأنه على شفير الاستثارة: «لا أدرى إن كان أى منكم قد رآه وهو جاد حقا. لكننى حدث وأن رأيته ذات مرة حينما كان منفتحا مثل تماثيل سايلنوس، وأبصرت لمحة من الصور التى يُبقى عليها مخفية داخله: كانت تشبه الآلهة بدرجة مذهلة - وضاءة، جميلة، آسرة تماما - بدرجة لم يعد لدىّ خيار - كان علىّ فقط فعل أى شىء يخبرنى به».

بالنسبة لأتباعه، غدا سقراط تجسيداً لحالة الجمال القدسى اللامتناهى، رمزا للحكمة التى كانت حياته كلها تتوجه نحوها. ومنذ أنذاك ظلت جميع مدارس الفلسفة الإغريقية تُجلّ حكيمها المؤسس بصفته تجسيدا مقدسا لفكرة متسامية، طبيعية للبشرية، ولكنها تكاد تكون من المحال الوصول إليها. كان الإغريق دائماً يرون الآلهة بصفتها حلولا للمقدس يكمن فى هيئة بشرية، والآن، فسيعبّر الحكيم فى شكل بشرى عن الفكرة العقلانية للرب والتى كانت بعيدة عن لاهوت آلهة أوليمب. وعلى الرغم من أنه كان بشرا - يوضح ألسيبياديس طبيعة سقراط البشرية الخالصة- فقد كانت صفاته البشرية الفريدة تشير خارج ذاته إلى كينونة متسامية كانت هى جوهر مسعاه الأخلاقى. أصبح هذا جليًا بخاصة فى أسلوب موته. كان قد ذهب شخصيا، إلى كل قاضٍ وحاكم بالمدينة محاولا إقناعه «ألا يهتم بممتلكاته قبل أن يهتم بأن يصبح هو خيِّرا وحكيما بقدر المستطاع؛ ألا يهتم بممتلكات المدينة بأكثر مما يهتم بالمدينة ذاتها، وأن يهتم بالأشياء الأخرى بنفس الأسلوب». بالطبع لم تكن نصيحته لتلقى قبولا من السياسيين. وقبل أن يتجرع شرابه السام، غسل جسده ليوفر على النساء العناء، وشكر سجّانَه بدماثة، وأطلق مزحات

خفيفة حول محنته. وبدلا من الغضب المدمّر المبدد، ساده سلام هادئ منفتح متقبّل فيما هو يواجه الموت بهدوء، ونهى أصدقاءه عن إعلان الحداد، وتقبلّ رفقتهم له بمحبة.

ترك إعدام سقراط أثرا لم يُمح على أفلاطون، الذى أحبط لدرجة جعلته ينبذ حلمه فى منصب سياسى لنفسه وسافر إلى شرق المتوسط حيث تعرف على الروحانية الفيثاغورية. لدى عودته إلى أثينا أنشأ مدرسة للفلسفة والرياضيات فى بستان على مشارف أثينا أطلق عليها اسم بطله أكاديمس وصارت تُعرف بالأكاديمية. لم تكن الأكاديمية تماثل قسما للفلسفة فى الجامعات الغربية الحديثة. كانت جمعية دينية؛ كان الجميع يحضرون التضحية اليومية للآلهة التى كان يؤديها أحد الطلبة الذين لم يأتوا فقط ليستمعوا إلى أفكار أفلاطون بل أيضا ليتعلموا كيف يسيرون حياتهم.

كان أفلاطون ينظر إلى الفلسفة على أنها تدرُّبٌ من أجل الموت «وزَعَم أن تلك كانت أيضا هى غاية سقراط: «هؤلاء الذين يمارسون الفلسفة بالأسلوب الصحيح يتدربون على الاحتضار ويخشون الموت أقل من أى أحد آخر». فى لحظة الموت، تتحرر الروح من الجسد، من ثم، كان على مريدى أفلاطون أن يعيشوا هذا الانفصال على أساس يومى، بل كل ساعة من ساعات اليوم. ويهتمون بعناية بسلوكهم وكأنما كل لحظة هى آخر لحظات حياتهم. كان عليهم أن يحترزون دائماً ضد الصغائر والتفاهات وبهذا، يتسامون على شخصياتهم الفردية التى سيخلفونها وراءهم يوما ما ويسعون بدلا من ذلك إلى منظور شامل الرؤية يدرك «المقدس والبشرى كلاًّ واحداً». لا يجوز للفيلسوف أن يكون محبا للمال، جبانا، أو مكابرا متبجحاً، عليه أن يكون موضع ثقة، وعادلا فى تعاملاته مع الآخرين. والرجل الذى يتصرف باتساق

على أنه ميت بالفعل، لا يجوز له أن ينظر للشئون الدنيوية بجدية مفرطة، بل يكون متماسكا فى الشدائد. لابد أن يأكل ويشرب باعتدال، ويغذى، بدلا من ذلك، قدراته العقلانية «بنقاشات وتكهنات جيدة». وإذا واظب الفيلسوف على اتباع هذا النظام بحرص، سيتوقف عن الاستياء من حالته الفانية؛ سيكون من العبث للرجل الذى عاش بهذا الأسلوب أن يقلق حينما يصل الموت فى النهاية. وإذا كان قد حرر روحه بالفعل من متاعب الجسد، يصبح بإمكانه أن «يتركها وحدها، خالصة فى حد ذاتها، ويواصل تحرياته، التوق إلى شىء لا يعرف كنهه، ويحاول إدراكه. ومثل أتباع فيثاغورث، اعتبر أفلاطون الرياضيات تدريبا روحيا يساعد الفيلسوف على فطام نفسه عن المدركات الحسية، ويصل إلى مستوى من التجريد يمكنه من النظر إلى العالم بأسلوب مختلف. اعتبر أن الهندسة هى مبدأ الكون الخفى. وعلى الرغم من أنه لا توجد فى العالم الواقعى دائرة كاملة أو مثلث كامل، فإن جميع الأشكال المادية منشأة وفقا لتلك الأشكال المثالية. وحقا، فإن كل شىء أرضى منمذج وفقا لنموذج أصلى فى عالم الأفكار الكاملة. حاد أفلاطون عن أفكار سقراط فى نقطة مهمة. اعتقد أننا لا نصل إلى مدرك عن الفضيلة بمراكمة نماذج للسلوك الفاضل فى الحياة اليومية. فمثل كل شىء آخر، رأى الفضيلة حقيقة موضوعية، توجد مستقلة على مستوى أعلى من الحياة المادية.

يعتبر «مبدأ الأشكال والصور» لأفلاطون فكرة غريبة بالنسبة لنا. فنحن ننظر إلى التفكير كشىء نقوم نحن به، من ثم، نفترض، بدهيا، أن أفكارنا من إبداعنا. لكن الناس فى العالم القديم خبروا الأفكار أشياء تحدث لهم. لم تكن المسألة هى معرفتى «أنا» بشىء؛ بدلا من ذلك كان الشىء «المعروف» يجذب الفرد له. وعمليا، فقد كان هذا يعنى أن الناس يقولون «أنا أفكر – لذا فهذا

الذى أفكر فيه كائن». وهكذا، كان لكل شىء يفكّر فيه وجود موضوعى فى عالم مثالى. كان مبدأ «الصور» (الكاملة)»، فى واقع الأمر، تعبيرا معقلنا عن فلسفة الوجود الدائم القديمة، حيث كان لكل شىء أو تجربة أرضية نظيره / نظيرها على المستوى المقدس. بالنسبة لأفلاطون كانت الصور تتواجد فى عالم منفصل. كانت تتجسد وهى المبهمة اللازمانية، وتحل فى أشكال واقعية منقوصة معينة، لأنها ذاتها لا علاقة لها بعملية التغير اللامتناهية. مهمة الفيلسوف أن يصبح على وعى حى بمستوى الحقيقة الأسمى هذا وذلك بتنمية قواه العقلانية ورعايتها.

يبدو أن رؤية أفلاطون للصور المتسامية كانت قد تأثرت بخبرته لطقوس الأسرار، التى كانت، مثل فلسفته، تساعد الناس على الحياة الخلاقة وسط أوضاعهم الفانية. ترك لنا فى كتابه فدروس Phaedros، أحد أكثر الأوصاف اكتمالا للتجربة الإليوسية – رغم أنه لم يشر إليها مباشرة. أوضح أن غالبية الناس غير مستطيعين رؤية الأشكال أو الصور الكاملة تتوهج من خلال نظيراتها الأرضية وذلك لأن «الحواس قاصرة». لكن فى أثناء طقوس تكريسهم، فإن ممارسى الطقوس السرية كانوا يلمحون جمالها المتوهج وأنهم يقولون:

«مع الكورس الرائع.. أبصرنا تلك الرؤية المباركة المذهلة، وتم اقتيادنا إلى داخل السر الذى بإمكاننا عن حق أن ندعوه الأكثر قدسية من الأشياء جميعها: وكنا نحن الذين احتفينا به كاملين تماما ومحررين من جميع المتاعب التى تنتظرنا فى المستقبل، وحملقنا فى حال من النشوة فى الأشياء المقدسة التى كشف عنها لنا والتى كانت كاملة، بسيطة، لا تتزعزع، وباعثة على سعادة لا توصف. كانت تلك هى الرؤية النهائية الجوهرية، رأيناها فى نور

نقى لأننا كنا أنفسنا أنقياء، لم نكن مدفونين فى ذلك الشيء الذى نحمله معنا الآن، والذى نسميه جسدا، موصدين داخله مثل المحارة داخل قوقعتها».

لم يكن من المتطلب من تلاميذ أفلاطون أن «يعتقدوا» فى وجود الصور الكاملة، بل كانوا يتلقون تكريسا طقوسيا يمكنهم من المشاركة فى تلك الرؤيا.

لم يفرض أفلاطون أفكاره على تلاميذه، أو يطرحها منهجيا كما يفعل الأكاديميون المحدثون، لكنه كان يقدمها مازحا، ومن خلال إلماحات مضمرة أثناء مجرى الأحاديث التى كان يعبر فيها عن وجهات نظر أخرى. لا نجد فى كتاباته سردا تعريفياً لـ «مبدأ الصور» مثلا، لأن كل حوار كان يوجه لجمهور مختلف له احتياجاته ومشاكله الخاصة به. لم تكن كتاباته، التى لم تخرج عن كونها وسائل إيضاح تعليمية، بديلا عن زخم الحوارات الشفاهية التى كان لها سمة عاطفية جوهرية فى التجربة الفلسفية، ومثل أى طقس آخر، كان ذلك عملا شاقا إلى أقصى حد يتطلب تكلفة هائلة من الوقت والجهد. ومثل سقراط، أصر أفلاطون على أن الحوار يجب أن يؤدَّى بأسلوب لطيف متراحم، تتشارك فيه جميع الأطراف فى نفس المشاعر:

«فقط حينما تحتك كل تلك الأشياء، الأسماء، التعريفات، الأحاسيس البصرية والأحاسيس الأخرى، تحتك معا، وتخضع للاختبارات التى يتم فيها تبادل الأسئلة والإجابات، بنيَّة سليمة ودونما أى كراهية، فقط آنذاك، ولدى تعدد القدرة الإنسانية إلى حدودها القصوى، تومض شرارة الفهم والذكاء وتنير موضوع النقاش».

«أفلاطون، الخطاب السابع، فدروس».

لو سار الحوار بأسلوب تنافسى متحدٍّ، لن تنجح طقوس التكريس. كان

الوصول إلى حالة من البصيرة المتسامية نتاجا لأسلوب حياة مكرس وأيضا لجهد ومسعى عقلى. لم تكن «شيئاً.. يمكن التعبير عنه بالكلمات مثل فروع التعليم الأخرى، فقط بعد شراكة طويلة فى حياة واحدة مكرسة لهذا الهدف فقط، تومض الحقيقة على الروح، مثل توهج أضاعته شعلة واثبة، وبمجرد أن تولد هناك، تغذى نفسها وترعاها إلى الأبد».

فى مدينته المثالية الفاضلة فى «الجمهورية» وصف أفلاطون عملية التكريس الفلسفى فى مثاله الأليجورى الشهير الخاص بالكهف. تخيل مجموعة من الرجال ظلوا مصفدين طوال حياتهم داخل كهف؛ ولأنهم لم يكن بإمكانهم رؤية ضوء الشمس، كان باستطاعتهم فقط رؤية ظلال الأشياء فى العالم الخارجي تنعكس على الجدار الصخرى. كانت هذه صورة للحال البشرية غير المستنيرة. فنحن قد تعودنا على رؤيتنا المنقوصة المشوشة بدرجة أننا، وكحال السجناء، نظن أن تلك الظلال الزائلة هى الواقع الحقيقى. إذا اصطُحِب السجناء إلى العالم العلوى، سيصيبهم نوره ووهجه بالارتباك وانبهار الإبصار وزيفه؛ سيجدونه أكثر مما يستطيعون تحمله وسيريدون العودة إلى وجودهم الشفقى. من ثم، لابد من تعويدهم تدريجيا دخول هذا المشهد الجديد. بالنسبة لأفلاطون، كان ضوء الشمس هو الخير، أسمى «الأشكال»، مصدر المعرفة والكينونة. يقع هذا الخير الأعظم خارج نطاق أى شىء يمكن أن نخبره فى حياتنا العادية. وفى نهاية فترة التدريب، سيصبح باستطاعة الأرواح المستنيرة أن تنعم بنوره، وسيريدون البقاء لوقت أطول فى العالم العلوى. لكنهم عليهم واجب العودة إلى الكهف لإنارة رفاقهم حيث يستطيعون تقييم مشكلات عالمهم الظلى بوضوح أكثر، لكنهم لن يكونوا موضع تقبل أو تقدير. الأحرى أن رفاقهم سيسخرون منهم، بل من المحتمل لهؤلاء أن ينقلبوا

ضد محرريهم ويقتلوهم – تماما، هكذا أضمر أفلاطون، مثلما أعدم الأثينيون سقراط.

وقرب نهاية حياة أفلاطون، وفيما تدهور الوضع السياسى فى أثينا، أصبحت رؤيته أكثر نخبوية وتشددا. فى آخر أعماله، أى «القوانين» الذى وصف فيه جمهورية طوباوية مثالية أخرى، أدخل آلية شبهية «بأسلوب» محاكم التفتيش لفرض معتقدات دينية أرثوذكسية رأى أن لها الأولوية على السلوك الأخلاقى. قال إن واجب الدولة الأول هو تلقين «الأفكار القويمة عن الآلهة، ثم العيش وفقا لها إما باستقامة أو بعدم استقامة». كان هذا تطورا جديدا تماما، غريبا على الديانات والفلسفة القديمة. رأى أنه لابد من إشراف «مجلس ينشط ليلا» على أفكار المواطنين الذين كان متطلبا منهم الخضوع لثلاثة بنود إيمانية: أن الآلهة موجودة؛ أنها تهتم بالبشر، أنها لا يمكن التأثير فيها بالأضحيات أو طقوس العبادة. يمنح من يُدان بالإلحاد فترة خمس سنوات للعودة إلى الصواب، لكنه إذا ثابر فى هرطقته يُحكم عليه بالإعدام. أى أن أساليب محاكم التفتيش التى أدانها فلاسفة عصر التنوير الغربيون فى ارتباطها بالديانات المنزلة، كان أول ظهور مبكر لها فى الموروث الإغريقى العقلانى الذى كان موضع الإعجاب العميق من هؤلاء الفلاسفة.

فى أعماله المتأخرة اتخذ فكر أفلاطون الدينى شكلا ملموسا أكثر، وبذلك مهد الطريق للاهتمام الدينى بالكون الفيزيقى الذى سيصبح سمة لكثير من الفكر الدينى الغربى. ابتدع فى تيموس Timaeus أسطورة خلق جديدة – لم يُقصد بها أن تفهم حرفياً بالطبع – قدم فيها العالم على أنه قد تم تشكيله بواسطة صانع مقدس demiourgos الذى قال إنه خالد وخيِّر، لكنه ليس كلىّ القوة. لم يكن الرب الأعلى. كان ثمة إله أعلى لا يمكن معرفته، بعيد عنا

بدرجة أن التوصل إليه غير ذى أهمية. علّق أفلاطون على هذا بالقول: «من الصعوبة بمكان العثور على صانع ووالد هذا الكون، وحتى لو نجحتُ فى هذا، سيكون من المستحيل الإعلان عنه للجميع». لم يكن هذا خلقاً من العدم: فقد عمل الحِرَفى الإله على مادة سابقة الوجود وكان عليه نمذجة خلقه على «الأشكال» الخالدة العلوية. كان فحوى القصة يهدف إلى توضيح أن الكون، وبما أنه مؤسس على غرار الأشكال الخالدة، يمكن فهمه. فالنظام الكونى كيان حى، له عقل منطقى وروح يمكن تبينهما فى نسبه الرياضية والدوران المنتظم للأجسام السماوية. والنجوم تتشارك فى قداسة «الأشكال» الخالدة الأصلية ومن ثم فهى «آلهة مرئية مستولدة»، أما الأرض، أو جايا Gaia الأسطورية، فهى الإلهة الرئيسية. وكذلك عقل nous كل شخص بشرى، فهو شرارة مقدسة، وإذا تمت رعايته كما يجب، فبإمكانه «الارتقاء بنا عاليا بعيدا عن الأرض وباتجاه ما يماثلنا فى السماء». ساعد أفلاطون على وضع أسس العقيدة الغربية المهمة القائلة بأن البشر يعيشون فى عالم عقلانى تماما، وأن التفحص العلمى للنظام الكونى هو مبحث روحانى.

أتى أرسطو (٣٨٤– ٣٢٢ ق م)، تلميذ أفلاطون العبقرى، بالعقلانية الفلسفية إلى أرض الواقع. كان بيلوچياً أكثر منه رياضياً، ومن ثم، أثارت عملية التحلل والنمو، التى كانت قد أقلقت أفلاطون. فضوله، ورأى فيها مفتاح فهم الحياة. قضى أرسطو عدة سنوات فى أسيا الصغرى، قام فيها بتشريح الحيوانات والنباتات ودوّن ملاحظاته تفصيليا. لم يثر كهف أفلاطون اهتمامه، لكنه وجد الخطة الآسرة التى كان أستاذه قد رآها فى كل ما حوله فى العالم الفيزيقى، وجد فيها جمالا وحازت على عميق اهتمامه. لم يكن «الشكل» الأفلاطونى بالنسبة لأرسطو، نموذجا أصليا خالدا بل بنية متعضونة متأصلة

تحدد نمو كل مادة مفردة وتطورها. كانت فكرة الغائية telos تهيمن على العلم الأرسطى: مثل أى أثر يصنعه البشر، فإن كل شىء فى النظام الكونى موجه نحو «نهاية» معينة، وله هدف محدد، «علة نهائية». مثلا، فإن جوزة البلوط مصممة بحيث تصبح شجرة بلوط، ومن ثم، فإن كيانها برمته مكرس لإنجاز تلك الإمكانية. لذا يجب الاحتفاء بالتغير لأنه يمثل ديناميـة، وجهداً كونياً شمولياً للتحقق.

نجد أن كتابات أرسطو كثيرا ما يشوبها عدم الاتساق والتناقض، لكن هدفه لم يكن الإتيان بنظام فلسفى مترابط منطقيا، الأحرى أنه هدف إلى وضع أسلوب علمى للتقصى. كانت كتاباته مجرد مذكرات للمحاضرات لم يُقصد بها أن تكون تعريفية بل إنها كانت تُفصَّل وفقا لاحتياجات مجموعات معينة من الطلبة بعضهم أكثر تقدما من الآخرين ويحاجة إلى مادة مختلفة. فى العالم الإغريقى لم تكن الدوغما (عملية التعليم) تصب فى قوالب حجرية بمجرد كتابتها، لكنها كانت تتنوع وفقا لفهم وخبرة من توجَّه إليهم. ومثل أفلاطون، لم يكن أرسطو معنياً، بشكل أساسى، بنقل المعلومات؛ بل بتعزيز أسلوب حياة فلسفى، لم تكن أبحاثه العلمية غاية فى حد ذاتها، بل أسلوبا يعيش «حياة تأملية» تُعرِّف البشر بالسعادة العظمى. اعتقد أرسطو أن ما يميز الرجال – لم يكن لديه متسع من الوقت للإناث– عن الحيوانات الأخرى هى قدرتهم على التفكير العقلانى. كانت هذه هى «صورتهم المثالية» الغاية التى صُمِموا من أجلها، من ثم، ولكى يصلوا إلى حالة «كينونة خيِّرة» eu-daimonia، عليهم السعى كى يفكروا بوضوح ، ويُجروا الحسابات، ويدرسوا، ويحاولوا فهم الأشياء. سيؤثر هذا أيضا فى صحة الرجل الأخلاقية، لأن خاصيات الشجاعة والكرم وغيرها، يجب إخضاعها لتنظيم

العقل. كتب فى إحدى أطروحاته المتأخرة يقول «الحياة وفقا للعقل هى الأفضل والأكثر إمتاعا لأن العقل، وأكثر من أى شىء آخر، هو الإنسان».

ومثل أفلاطون، اعتقد أرسطو أن الذكاء البشرى مقدس خالد. فهو الرابطة بين البشر والآلهة، كما أنه يمدهم بالقدرة على إدراك الحقيقة النهائية الجوهرية. وبالتقابل مع المتع الحسية أو الأنشطة العملية المحضة، فإن متع «تأمل الحقيقة كهدف فى حد ذاته theoria» لا تتعاظم أو تتلاشى، لكنها بهجة مستمرة، تمنح المفكر ذلك الاكتفاء الذاتى الذى هو أسمى مراتب الحياة. من ثم، أصر أرسطو «أن علينا، بقدر استطاعتنا، أن نجهد كل عصب من أعصابنا كى نعيش وفقا لأفضل شىء فينا»، رأى أن تأمل الحقيقة the- oria نشاط مقدس، من ثم، باستطاعة الرجل أن يمارسه فقط «بقدر حضور شىء مقدس داخله». كانت أبحاثه البيولوجية تدريبات روحانية، اعتقد أن: الأشخاص الذين لديهم «ميول فلسفية» وباستطاعتهم «استقصاء حلقات السببية» سيجدون أن ذلك يأتيهم بـ «متعة هائلة» لأن العلماء، بممارستهم قدراتهم العقلية يشاركون فى حياة الرب الخفية.

اعتقد أرسطو أن الكون خالد من ثم، لم يكن إلهه هو الخالق، أو العلة الأولى للكينونة، بل «المحرك الذى لا يتحرك» الذى أطلق حركة النظام الكونى. كان لعلم الكون الأرسطى أن يحدد أفكار الغرب عن الكون حتى القرن السادس عشر: الأرض مركز النظام الكونى، وتدور الأجسام السماوية حولها، كلٌ فى قبته السماوية. لكن ما الذى أطلق حركة النجوم والكواكب فى دوراتها التى لا تتغير؟ لاحظ أرسطو أن حركة الشىء الأرضى يدفعها دائما شىء خارجه. لكن لابد أن تكون القوة الدافعة المسئولة عن الحركة السماوية، غير متحركة، بما أن العقل يقتضى أن سلسلة السبب والنتيجة لابد وأن يكون

لها نقطة بداية. يمكن للحركة فى المملكة الحيوانية أن تشعلها الرغبة. يطارد الأسد الجائع الحمل لأنه يريد أن يأكل. من ثم، من المحتمل أن التوق هو الذى أطلق حركة النجوم التى هى ذاتها على قدر من الكمال يجعلها تتوق لما هو أعظم كمالا، دافعها هو الحب العقلى للإله المكتفى بذاته تماما والمستغرق فى النشاط الأعظم أى «التفكير فى التفكير noesis noeses» أو تأمل ذاته الذى لا يتوقف.

رأى أرسطو أن الثيولوچيا theologia، أو «الخطاب حول الله» هو الفلسفة الأولى لأنه كان يدور حول أسلوب الكينونة الأسمى. لكن إله أرسطو كان لا شخصيًّا تماما ولم يكن له أية سمة من سمات يهوه أو آلهة أوليمب. لم يكن لهذا الإله أن يجذب القوم العاديين. بيد أن أرسطو كان مقتنعا أن الفيلسوف الذى يستخدم قدراته على التفكير العقلانى لأقصى درجة سيتمكن من أن يخبُر هذا الإله القصى. اعتقد أرسطو، مثل غيره من الإغريق، أننا حينما نفكر فى شىء ما، فإن موضوع تفكيرنا هو الذى ينشط عقلنا، ومن ثم، فمن المنطقى أن الفيلسوف حينما ينشغل بتأمل الله، فإنه يشارك فى طبيعة موضوع التفكير».

«.. الفكر وموضوع الفكر شىء واحد: إن فعل التأمل (theoria) هو الأكثر إمتاعا والأفضل. من ثم فإذا كان الله دائما فى هذه الحالة الخيِّرة التى نخبرها أحيانا، فهذا يستدعى منا الدهشة والإعجاب، والحال الأفضل يستدعى منا ما هو أكثر. والله فى حال أفضل. والحياة أيضا تنتمى لله، لواقع الفكر ذاته، والله هو ذلك الواقع، وواقع الله المعتمد على ذاته هى حياة خير كلى خالد. لذلك نقول إن الله كينونة حىّ، خالد، خيِّر للدرجة القصوى، وهكذا فإن الحياة والأمد المستمر الأزلى كلها تنتمى إلى الله؛ لأن هذا هو الله». (أرسطو، الميتافيزيقا).

وبمطلع القرن الثالث قبل الميلاد كانت قد ظهرت ست مدارس فلسفية رئيسية: الأفلاطونية، الأرسطية، الشكوكية (تقول إن المعرفة الحقيقية غير محققة أو مؤكدة)، الكلبية cynicism (ترى أن غاية الحياة هى السعادة التى لا تتحقق لنا إلا بأن نحيا على وفاق مع الطبيعة، حياة مكتفية بذاتها وهى قوام الفضيلة)؛ والإبيقورية (مذهب اللذة والتحرر من الألم) والرواقية (الزهد والتنسك). كانت كلها ترى النظرية ثانوية مقارنة بالممارسة، وتتوقف عليها، وكانت جميعها تنظر إلى الفلسفة «كمنهج حياة تحويلى لا نظام نظرى محض». طورت كل منها فلسفتها المدرسية الخاصة وأنشأت بُنى ضخمة من التعليقات المكتوبة على تعاليم الحكماء، لكن تلك الكتابات كانت ثانوية بالنسبة للنقل الشفاهى للموروث. حينما كان أحد الفلاسفة يُفسر أحد المرجعيات مثل أفلاطون أو أرسطو، كان يهدف بشكل أساسى إلى تشكيل روحانية تلاميذه. من ثم، كان يشعر بحرية القيام بتأويل جديد تماما للنصوص القديمة إذا كان هذا يرضى احتياجات مجموعة بعينها. كان المهم هو مكانة النصوص القديمة، لا مقصد كاتبها الأصلى. واستمر هذا النهج متبعا فى الفكر الغربى حتي بداية الفترة الحديثة.

كان العصر الهلنستى الذى تلى إنشاء إمبراطورية الإسكندر الأكبر (٣٥٦– ٣٢٣ ق م) وتحللها فيما بعد كان فترة اضطرابات سياسية واجتماعية. من ثم، اهتمت الفلسفة الهلنستية بشكل أساسى بتنمية السلام الداخلى. مثلا، أسس إبيقوروس (٣٤١ - ٢٧٠) جماعة خارج أثينا بالقرب من أكاديمية أفلاطون، حيث كان أتباعه يحيون حياة مقتصدة منعزلة كى يتجنبوا الاضطراب النفسى والعقلى. وفى نفس الوقت، دعا زينون Zeno (٣٤٢– ٢٧٠) الذى كان يحاضر في رواق (Stoa) فى ساحة أثينا، دعا إلى

فلسفة «التحرر من الألم antaraxia»: كان الرواقيون يأملون فى الوصول إلى حالة من الصفاء الكلى من خلال التأمل وأسلوب حياة معتدل خاضع للنظام وتهذيب النفس.

ومثل أفلاطون وأرسطو، نظر الأبيقوريون والرواقيون إلى العلم على أنه مبحث روحانى بشكل أساسى. كتب إبيقوروس إلى صديق له يقول «لا يجوز لنا أن نفترض أن ثمة هدفاً تخدمه معرفة الظواهر السماوية سوى التحرر من الألم antaraxia والثقة الراسخة، تماما مثل مجالات الدراسة الأخرى». اكتشف الأبيقوريون أنهم حينما يتأملون النظام الكونى الذى وصفه أصحاب مذهب «الذرة» ليوسيبوس وديموقريطوس، كانوا يشعرون بالتحرر من القلق غير الضرورى. ولأن الآلهة ذاتها كانت نتاج تمازجات ذرات تحدث بالمصادفة، فبغير إمكانها التأثير فى أقدارنا، ولذا فإن الخوف منها لا داعى له. حينما كانوا يتأملون الفضاء الخالى الشاسع بجزيئاته التى تدور فى دوامات، كانوا يشعرون أنه قد وصلوا إلى منظور يماثل منظور الآلهة. أبلغ مترودوروس، أحد أتباع إبيقوروس، تلاميذه: «قد تكون حياتكم على الأرض قصيرة؛ لكنكم، على الرغم من ذلك، ومن خلال التمعن فى الطبيعة، قد ارتقيتم إلى لانهائية المكان والزمان، وشهدتم كل الماضى والمستقبل». أيضاً، اكتشف الرواقيون بدورهم أن تأمل ضخامة الكون يكشف عدم الأهمية التامة للشئون الإنسانية ومنحهم هذا منظورا أكثر حكمة. قالوا بأن الواقع كله يبعث فيه الحياة نَفَسٌ نارى بخارى أسماه زينون «العقل Reason» «الروح Pneu-ma» والله. رأوا أن على الفيلسوف، وبدلا من أن يلعن قدره، أن يوائم حياته لتلك «الروح» ويسلم كيانه كله لمسيرة العالم التى لا تلين أو تتغير. ومن ثم، يصبح هو نفسه تجسيداً للعقل.

من المحتمل أن الفلاسفة كانوا ناقدين للدين الشعبى، بيد أن أسلوب حياتهم اقتضى «فعل إيمان «Pistis» كان لابد له أن يتجدد كل يوم. لم يكن هذا يعنى بالطبع أنه كان عليهم أن «يعتقدوا» اعتقادا أعمى فى تعاليم مدارسهم التى لم تكن حقيقتها تنجلى سوى فى سياق ممارساتها الروحية والأخلاقية. كان فعل الإيمان «Pistis» يعنى «الثقة» «والولاء» و«الانخراط» و«الالتزام». كان الفيلسوف، وضد جميع البراهين النقيضة المحبطة، يثق أن النظام الكونى عقلانى بالفعل، وكان ينخرط فى التدريبات القاسية التى نص عليها الحكماء، ويلتزم يوميا بالجهد البطولى الذى تتطلبه الحياة الفلسفية الحقة على أمل أن يصل يوما إلى التحرر من الألم والاستنارة العقلية.

لم تكن عقلانية الإغريق القدماء تتناقض مع الدين، كانت هى نفسها موروثا إيمانيا طور نسخته المميزة من المبادئ التى أرشدت غالبية الموروثات الدينية. كانت الفلسفة توقا للحكمة المتسامية؛ كانت تكن احتراما صحياً لحدود «العقلانية» وقصورها واعتقدت أن الحكمة العليا متجذرة فى حالة من «عدم معرفة ما لا سبيل إلى معرفته». كانت استبصاراتها نتيجة ممارسات تأملية عملية وأسلوب حياة خاضع للنظام. فى تعاملهم مع الآخرين، طوّر الإغريق شكلهم الخاص من «تفريغ النفس Kenosis» أى تقويض النزعات الذاتية، وممارسة التراحم، ونظروا إلى الوصول إلى الاستنارة على أنه نشاط جمعى مشترك لابد أن تواكبه الرحمة، واللطف، وأخذ الآخرين فى الاعتبار.

ثمة فرق شاسع بين إله أرسطو ويهوه، لكن، وعلى الرغم من عداء اليهود للثقافة الهلنستية التى كانت قد بدأت تتسرب إلى الشرق الأدنى، فقد ألهمت الأفكار الإغريقية بعضهم، واستخدموها لتساعدهم على الرقى بفهمهم لله. فى القرن الثالث قبل الميلاد شخصن كاتب يهودى «حكمة الله» التى أتت بالعالم

إلى الحياة. تخيلها إلى جانب الله مثل «صانع» أفلاطون الحِرَفى الذى شكل العالم: «كنت عنده صانعا، وكنت كل يوم لذته فرِحة دائماً قدامه، فرِحة فى مسكونة أرضى ولذاتى مع بنى آدم» (أمثال ٨: ٣٠- ٣١). كانت متطابقة مع الكلمة التى نطق بها الله لدى الخلق، ومع «الروح» التى هامت فوق المحيط البدئى. لم تكن «الكلمة» «الحكمة» «الروح» آلهة منفصلة، بل أوجها للإله، القدسى الذى يفوق الوصف، أوجُهاً بإمكان عقولنا الضعيفة أن تتعرف عليها – لا تختلف كثيرا عن «البهاء Kavod» الذى وصفه الأنبياء. وفيما بعد، وبنفس الأسلوب تقريبا، رأى كاتب يهودى كان يعيش فى مدينة الإسكندرية الهلنستية بمصر فى القرن الأول قبل الميلاد الحكمة sophia هى الإدراك البشرى لله، فكرة فى عقولنا لا تتعدى كونها ظلا باهتا للحقيقة المتسامية كلية الوجود التى ستظل تستعصى على فهمنا لها: «روح قدرة الله وشذاها.. انعكاس للنور الخالد، المرآة الصافية لقدرة الله النشطة. صورة لخيره وكرمه».

كان اليهود يتدربون فى الإسكندرية مع اليونانيين بالجيمنازيوم ويشاركون فى التدريبات الروحية والفكرية التى دائماً ما رافقت التدريبات الرياضية. أتى فيلو Philo (٤٥ ق م) وهو يهودى أفلاطونى بتمييزه على قدر هائل من الأهمية والتأثير بين طبيعة الله الجوهرية ousia وبين «قواه dunamis» أو طاقاته. ليس بإمكاننا أبدا معرفة طبيعة الله الجوهرية، لكن الله، ومن أجل أن يكيف طبيعته المتعالية التى تفوق أى وصف لأفهامنا المحدودة، تواصل معنا من خلال أنشطته فى العالم. ليست تلك هى صورة الله ذاته، لكنها الحقائق الأسمى التى بإمكان العقل البشرى إدراكها والتى مكنتنا من أن نبصر ومضة من الحقيقة المتسامية المتعالية بدرجة تفوق أى شىء باستطاعتنا

تصوره. استخدم فيلو أيضا القصص الرمزية للإنجيل العبرى بنفس الأسلوب الذى كان به الفلاسفة الإغريق يحولون ملحمتى هومر إلى قصص رمزية لجعلها تتوافق مع المثال الفلسفى ولتقريبها من مدارك الجمهور. اقترح فيلو أن خطة الله الرئيسية للخلق (حكمته) تناظر عالم «الأشكال» الكاملة التى تجسدت فى العالم الفيزيقى.

بيد أن فيلو لم يكن نمطيا. كانت يهودية التيار الرئيسى مازالت ديانة معبد، تهيمن عليها طقوس الأضحيات، والشعائر المعقدة، وأعياد المعبد الكبيرة التى قصد بها تعريف المشاركين اليهود بالحضور المقدس. لكن فى عام ٧٠ ق م، أجبرت كارثة سياسية اليهود على السعى وراء بؤرة دينية أخرى. ظهرت حركتان يهوديتان جديدتان، وكانت كلتاهما متأثرتين، كل بأسلوبها، بالمعتقدات الإغريقية، وكان ينظر إليهما بصفتهما «مدرستين فلسفيتين»، كما أنهما طورتا تعاليمهما وفقا لنموذج «البريكولاج bricol-age» الذى كانت تتبعه الأكاديميات الإغريقية، والذى كان عبارة عن تأويل النصوص القديمة تأويلات جديدة تناسب احتياجات العصر ومتطلبات مجموعات الطلبة المختلفة. كان يتم اللجوء إلى هذا الأسلوب فى العصور ما قبل الحديثة بسبب ندرة المادة المكتوبة وكان أسلوبا معترفا به للدفع قدما بالموروثات القديمة. لم يقتصر استخدام هذا الأسلوب على مدرسى الديانات، بل استخدمه أيضا الفلاسفة الهلنستيون.